الدلالات الدعوية المستنبطة من قصة أسماء بنت أبي بكر مع الزبير –رضي الله عنهما-

د. عبد اللطيف بن حمود التويجري

الأستاذ المساعد في قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

Maais1000@gmail.com

مستخلص:

هدف البحث إلى إبراز الدلالات المستنبطة من قصة أسماء بنت أبي بكر وزوجها الزبير بن العوام رضي الله عنهما، واعتمد الباحث المنهج الاستنباطي والمنهج التاريخي، ومنهما توصل إلى نتائج البحث، ومن أبرزها الآتي: الأسرة منظومة متكاملة، وكيانٌ مترابط يقوم على أركان، وله حاجات، وعليه واجبات، وليس مجرد علاقة بين أفراد، يجمعهم بنيانٌ واحد، ولكلّ فردٍ حقوقٌ، وعليه واجباتٌ داخل هذه المنظومة، تُؤخذ الحقوق بالمعروف، وتُحمّل بالإحسان. كما أن تربية الأجيال، وبناء المجتمع هو قِوام الحياة، وضمانة المستقبل؛ والمرأة بذلك تتحمل مسؤولية كبرى في بناء الاعتقاد الصحيح، والإيمان الراسخ، وصياغة القيم المثلى، والأخلاق الحسنة، والمهارات اللازمة لدى الجيل القادم من أبناء وبنات. وعندما تنهض المرأة بمسؤوليتها بنجاح، تُسهم في تعزيز فاعلية الرجل في مجالات الدعوة والجهاد، وهي بذلك تعطي الرجل الفرصة للتركيز على واجباته الدعوية دون القلق على بيته. وأوصى الباحث بالاهتمام بأبحاث الاستنباطات الدعوية والاجتماعية والفقهية وغيرها من القصص والأحداث والمواقف التاريخية في صدر الإسلام؛ لما اشتملت عليه من فوائد ودروس جمة.

كلمات مفتاحية: الدلالات، الاستنباط، الأسرة، المجتمع، الدعوة.

The DA'wah connotations derived from the story of Asma bint Abu Bakr with Zubayr, may Allah be pleased with them

Dr. Abdul Latif bin Hamoud Al-Tuwaijri
Assistant Professor in the Department of Islamic Call and Culture at the Islamic University
Maais1000@gmail.com

Abstract

The aim of the research was to highlight the connotations derived from the story of Asma bint Abu Bakr and her husband Zubair Ibn al-Awam, may Allah be pleased with them, and the researcher adopted the deductive and historical approach, from which he came to the research results, the most prominent of which are the following: the family is an integrated system, an interconnected entity based on pillars, has needs, and has duties, and not just a relationship between individuals, united by one structure, and each individual has the right to take his way and lifestyle he likes. Raising generations and building a society is the foundation of life and the guarantee of the future; women thus bear a great responsibility in building the right belief, firm faith, and the formation of optimal values, good morals, and the necessary skills for the next generation of sons and daughters. When women successfully fill their role, they contribute to enhancing men's effectiveness in the areas of Da'wah and jihad, thereby giving men the opportunity to focus on their DA'wah duties without worrying about their home. The researcher recommended that researchers in the field of Islamic Studies pay attention to the research of Da'wah, social, fiqh and other conclusions from some of the most prominent historical stories, events and situations in the breast of Islam, because of its great benefits.

Keywords: semantics, deduction, family, community, vocation.

د. عبد اللطيف بن حمود التويجري

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن عصر صدر الإسلام هو العصر الذي انبثقت فيه أنوار الرسالة، وتنزلت فيه هدايات الوحي، وافترّت فيه شفتا النبي الكريم فصيحةً بكل هدىً ونور، ولذا تألق فيه جيل الصحابة، وسموا بإيمانهم، وعلوا بأخلاقهم، وكملت شمائلهم، فهم الذين عاصروا التنزيل، وعايشوا النبي ﷺ، واستقوا من معين سنته، واقتبسوا من أنوار الوحي؛ فهو بهذا جيلٌ وعصرٌ حافل بالمواقف والأحداث التي لم تكن مجرد وقائع تاريخية، بل نماذج حية لتجسيد الوحي والرسالة والهدى واقعاً ظاهراً، ولهم السبق في كل مجال من مجالات الدين والأخلاق وعلوم الشريعة. ومن ذلك ما يتعلق بالمبادئ والقيم الاجتماعية والدعوية، فلهم فيها القِدْحُ المُعلّى[(١)]، وهم القدوة المثلى في هذا الباب وغيره، ففي أحداثهم وحياتهم قصص تحمل دلالات عميقة لمن أحسن تأملها واستنباط معانيها، فتغدو منارات تهدي السائرين في طريق الدعوة إلى الله، وتسهم في بناء الأسرة وتوجيه المجتمع المسلم. غير أن الإفادة الحقيقية منها لا تتحقق إلا عبر دراسات تحليلية متعمقة تستكشف معانيها، وتستنبط دلالاتها، وتبرز حكمتها الشاملة، كما قال ﷻ بعد أن حكى علينا قصة يوسف عليه السلام: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

ولهذا وجدتُ من خلال التأمل في أحداث السيرة النبوية وحياة الصحابة، أن كثيراً من المواقف تستحق الدراسة والبحث لاستخلاص ما تحمله من معانٍ ودلالات، ومن بين هذه المواقف التي استوقفت انتباهي وأثارت اهتمامي، قصة أسماء بنت أبي بكر الصديق مع الزبير بن العوام -رضي الله عنهما-، فوجدت منها نافذة للمساهمة في هذا المضمار، واخترت أن أتناول تفاصيل القصة بالدراسة، لما تتضمنه من إشارات ذات صلة ببناء الأسرة، وتفعيل دورها في ميدان الدعوة، وجوانب تربوية، وأخرى سلوكية تُفيد المجتمع والأسرة المسلمة، والمربين في كيفية التعامل مع

(١) القِدح بكسر القاف: مفرد، وجمعه أقداح، وهو سهم الميسر، ويُراد به: الحظ الأوفر، والنصيب الأكبر.

تزاحم المصالح والواجبات.

مشكلة البحث وتساؤلاته:

لا تخلو القصص الفردية في صدر الإسلام الأول من دلالات متنوعة يمكن استلهامها والبناء عليها؛ ذلك أنها حدثت في ظل المجتمع المسلم الجديد لجيل الصحابة الأوائل من الذكور والإناث على حد سواء، مع الحضور الواسع للتطبيقات العملية للمنهج الإسلامي المستمد بمجمله من القرآن الكريم والسنة النبوية، بما يشتمل عليه من توجيهات وتشريعات ومبادئ وأخلاقيات، مع ضبط كافة العلاقات الاجتماعية بين أفراده، وتوجيه وتسديد المواقف والأحداث التي تحصل معهم، وتسديدها. وتعد هذه القصص مليئة بالدلالات إذ هي ليست مجرد روايات تاريخية، إنما وقائع وأحداث عاشها أصحابها، وكان لها أثرها البالغ على حياتهم وعلاقتهم مع خالقهم والتزامهم بدينهم.

وبناءً عليه؛ فإن مشكلة هذا البحث تتمحور حول إثارة التساؤل الرئيس الآتي:

ما الدلالات الدعوية المستنبطة من قصة أسماء بنت أبي بكر مع الزبير رضي الله عنهما؟

ويتفرع عنه الأسئلة الآتية:

١. ما الدلالات الأسرية المستنبطة من القصة؟
٢. ما الدلالات الاجتماعية المستنبطة من القصة؟
٣. ما الدلالات التربوية المستنبطة من القصة؟
٤. ما الدلالات العملية المستنبطة من القصة؟

أهمية موضوع البحث، وأسباب اختياره:

اولًا: تكمن أهمية هذا البحث في أنه يُؤلف إسهامًا معرفيًا في مجال الدعوة إلى الله تعالى، وتبصير الدعاة بأهمية استنباط الدلالات من القصص النبوي وقصص الصحابة بمختلف أنواعها.

ثانيًا: لعل هذا البحث يلفت الأنظار إلى أهمية استنباط الدلالات المختلفة من مجمل القصص والمواقف والأحداث، بما في ذلك القرآنية منها والنبوية والاجتماعية على حدٍ سواء.

ثالثًا: لم يقف الباحث على أي دراسة سابقة تناولت قصة أسماء بنت أبي بكر مع الزبير -رضي الله عنهما- دراسةً دعويةً مفردة؛ فعزم على الكتابة فيما اشتملت عليه من دلالات جديرة بالاهتمام.

رابعًا: أراد الباحث ببحثه هذا إثراء مكتبة الدعوة الإسلامية ببحث يتطرق لكيفية استنباط الدلالات من القصص والأحداث والمواقف التي جرت بين الصحابة ﷺ، والإفادة منها في المجال الدعوي.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى استنباط واستنتاج الدلالات الدعوية من قصة أسماء بنت أبي بكر مع الزبير رضي الله عنهما، وفق الأهداف الفرعية الآتية:

١. استنتاج الدلالات الأسرية من القصة.
٢. استقراء الدلالات الاجتماعية من القصة.
٣. استخلاص الدلالات التربوية من القصة.

منهج البحث:

طبيعة موضوع هذا البحث تستدعي استخدام **المنهج الاستنباطي**، وهو «المنهج القائم على النظر في النصوص والنقول، ودراستها وتحليلها، ومحاولة استخراج ما انطوت عليه من أحكام ومواعظ وأسرار»[٢]. كما أنه "الطريقة التي يقوم فيها الباحث ببذل أقصى جهد عقلي ونفسي عند دراسة النصوص بهدف استخراج مبادئ تربوية مدعمة بالأدلة الواضحة"[٣]. وسرتُ وفق هذا المنهج في استنباط الدلالات وما يتفرع عنها من قصة أسماء بنت أبي بكر مع الزبير رضي الله عنهما. وكذلك قمت باستخدام **المنهج التاريخي**: وهو المنهج الذي تتم فيه دراسة

(٢) دليل كتابة الرسائل العلمية والبحوث التكميلية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، أ.د. أحمد عبد الله الضويحي و د. أحمد بن عبد الرحمن الرشيد، إصدارات جامعة الإمام، ١٤٣٢، (ص ٢٥).

(٣) المرشد في كتابة الأبحاث، حلمي محمد فوده وعبد الرحمن صالح عبد الله، جدة: دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، الطبعة السادسة، ١٤١٠، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، (ص٤٢).

الحالات التي أصبحت في ذمة التاريخ[٤]، ويعتمد في مصادره على: النقول والمرويات، والآثار، والمشاهدات، والأحداث والكتابات الماضية؛ وموضوعاته الرئيسية أو مشكلاته البحثية ومادته العلمية ومصادره، حدثت أو كتبت في الماضي.[٥] ومن خلاله أقوم بتتبع مسار المشاهد التاريخية المتعلقة بقصة أسماء مع الزبير رضي الله عنهما.

الدراسات السابقة:

ثمة دراسات سابقة تناولت الدلالات، ولاسيما الدلالات الدعوية من عدة قصص في السيرة النبوية وحياة الصحابة، بيد أن الباحث لم يقف على أي دراسة تناولت الدلالات المستنبطة من قصة أسماء بنت أبي بكر مع الزبير رضي الله عنهما؛ باستثناء ما كان من سرد للقصة أو تعليقات مقتضبة عليها في بعض المقالات والمواقع الإلكترونية.

الدراسة الأولى: ذات الناطقين أسماء بنت أبي بكر الصديق "رضي الله عنها": دراسة في سيرتها، الباحث: نضال مؤيد مال الله، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة واسط، العراق، العدد ٤٣، ٢٠٢١م.

تناولت هذه الدراسة سيرة أسماء بنت أبي بكر ~ دراسة شاملة لفصول حياتها وهجرتها ونصرتها، وإن كانت قد تناولت جهودها في الدعوة، إلّا أنها لم تقف على تفاصيل المواقف، كما هي الحال في هذا البحث، حيث كان مقتصراً على أحد المواقف المروية، والذي يخصّ قصتها مع تحملها لأعباء الأسرة، وكفايتها لزوجها الزبير -رضي الله عنهما-، واستنباط الدروس والعبر من هذه القصة، وهذا الفرق الجوهري بين الدراستين.

الدراسة الثانية: دور أسماء بنت أبي بكر- رضي الله عنهما- في العهد النبوي "٢٧ ق. هـ - ٧٤هـ. / ٥٩٥-٦٩٣ م."، الباحثة: نجلاء محمد أحمد الجعوري، مجلة القلزم للدراسات التاريخية والحضارية، مركز

(٤) المرجع السابق، (ص ٢٨).

(٥) ينظر: أسس مناهج البحث العلمي وتحقيق النصوص في العلوم الإسلامية والعربية، علي بن عتيق الحربي، الناشر المتميز للطباعة والنشر: الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص ٦٢-٦٣).

بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر والاتحاد الدولي للمؤرخين، السودان، العدد ٣١، ١٤٤٥هـ-٢٠٢٤م.

تظهر أهمية هذه الدراسة في التعرف على الحياة الاجتماعية لأسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنها- بالإضافة إلى إيضاح مكانة ودور المرأة في الإسلام وعنايته بحفظ حقوقها وواجباتها، كما أن أهم أهداف الدراسة يتمحور في التعرف على دور أسماء بنت أبي بكر في إنجاح الهجرة النبوية، ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة في هذه الدراسة تعزيز دور المرأة في الإسلام وتكريمها وتمكينها في خدمة المجتمع، وأن سيرة أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنها- من ضمن أهم القصص التاريخية والنبوية للنساء خاصة.

وتفترق هذه الدراسة- أيضا- عن موضوع البحث أنها لم تتناول قصتها مع الزبير بالتفصيل الذي تناوله البحث، والتحليل الدعوي والأسري والتربوي لها، واستخلاص الدروس منها.

الدراسة الثالثة: مفهوم الشخصية المبادرة للفتاة في ضوء سيرة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وتطبيقاتها المعاصرة، الباحثة: منى بنت دهيش بن مساعد القرشي، مجلة كلية التربية، جامعة العريش، مصر، المجلد ١١، العدد ٣٤، ٢٠٢٣م.

هدفت الدراسة إلى استنباط مكونات مفهوم الشخصية المبادرة للفتاة من خلال التعرف على أهم سماتها، وأهدافها، ومجالاتها، والتطبيقات المعاصرة المساعدة في بنائها في ضوء سيرة أسماء، والتي شملت الجانب الإيماني، والجانب الأخلاقي، والجانب العقلي، والجانب الاجتماعي، والجانب البنائي، وتفترق هذه الدراسة عن البحث -أيضا- في كونها دراسة شمولية لحياة أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنها-، لاستخراج شخصيتها المتكاملة كأنموذج للفتاة المسلمة، وهي مفارقة لموضوع هذا البحث ومنهجه، والذي هو مقتصر على قصتها مع الزبير، وما يمكن الاستفادة منها في الجانب الدعوي.

تقسيمات موضوع الدراسة:

التمهيد: نص الحديث، والتعريف بأعلام البحث.

المطلب الأول: نصّ الحديث.

المطلب الثاني: ترجمة الزبير بن العوام ﷺ.

المطلب الثالث: ترجمة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها.

المبحث الأول: الدلالات الأسرية.

المطلب الأول: القناعة والرضا بقسمة الله.

المطلب الثاني: تعاون أفراد الأسرة، وتبادل الأدوار.

المطلب الثالث: حفظ المرأة لزوجها في غيبته.

المطلب الرابع: شفقة الرجل على أهله.

المطلب الخامس: كفايةُ المرأة زوجها عند انشغاله بالدعوة.

المبحث الثاني: الدلالات الاجتماعية.

المطلب الأول: حياء المرأة، وحفظ حقها في ذلك.

المطلب الثاني: التعاون والتكافل الاجتماعي.

المطلب الثالث: العطف على ذوي الحاجات.

المبحث الثالث: الدلالات التربوية.

المطلب الأول: دور المرأة في التربية وبناء الجيل.

المطلب الثاني: حمل المرأة المسلمة لهمّ الدعوة.

المطلب الثالث: نأي المرأة بنفسها عن خُلطة الرجال.

خاتمة، تشتمل على:

- أبرز النتائج والتوصيات.

التمهيد: نصّ الحديث، والتعريف بأعلام البحث

المطلب الأول: نصّ الحديث

قال الإمام البخاري: حدَّثنا مَحْمُودٌ: حدَّثنا أَبُو أُسَامَةَ: حدَّثنا هِشَامٌ، قالَ: أخبَرَنِي أَبِي: عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنها قالَتْ: **(تَزَوَّجَنِي الزُّبَيْرُ، وَمَا لَهُ فِي الأَرْضِ مِنْ مَالٍ وَلَا مَمْلُوكٍ، وَلَا شَيْءٍ غَيْرَ نَاضِحٍ وَغَيْرَ فَرَسِهِ، فَكُنْتُ أَعْلِفُ فَرَسَهُ وَأَسْتَقِي الْمَاءَ، وَأَخْرِزُ غَرْبَهُ وَأَعْجِنُ، وَلَمْ أَكُنْ أُحْسِنُ أَخْبِزُ، وَكَانَ يَخْبِزُ جَارَاتٌ لِي مِنَ الأَنْصَارِ، وَكُنَّ نِسْوَةَ صِدْقٍ، وَكُنْتُ أَنْقُلُ النَّوَى مِنْ أَرْضِ الزُّبَيْرِ الَّتِي أَقْطَعَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى رَأْسِي، وَهِيَ مِنِّي عَلَى ثُلُثَيْ فَرْسَخٍ، فَجِئْتُ يَوْمًا وَالنَّوَى عَلَى رَأْسِي، فَلَقِيتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَدَعَانِي ثُمَّ قالَ: «إِخْ إِخْ». لِيَحْمِلَنِي خَلْفَهُ، فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ أَسِيرَ مَعَ الرِّجَالِ، وَذَكَرْتُ الزُّبَيْرَ وَغَيْرَتَهُ، وَكَانَ أَغْيَرَ النَّاسِ، فَعَرَفَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنِّي قَدِ اسْتَحْيَيْتُ فَمَضَى، فَجِئْتُ الزُّبَيْرَ فَقُلْتُ: لَقِيَنِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَعَلَى رَأْسِي النَّوَى، وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَأَنَاخَ لِأَرْكَبَ، فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ وَعَرَفْتُ غَيْرَتَكَ. فَقالَ: وَاللهِ لَحَمْلُكِ النَّوَى كَانَ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ رُكُوبِكِ مَعَهُ. قالَتْ: حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ بِخَادِمٍ يَكْفِينِي سِيَاسَةَ الْفَرَسِ، فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَنِي)**[٦].

غريب الحديث[٧]:

(ناضِح): بعيرٌ يستقى الماء عليه.

(الخَرْز): الخياطة في الجلود ونحوها.

---

(٦) حديث صحيح أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الغيرة، حديث رقم: (٥٢٢٤)، ومسلم: كتاب السلام، بَاب جَوَازِ إِرْدَافِ الْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ، إِذَا أَعْيَتْ، فِي الطَّرِيقِ، حديث رقم: (٢١٨٢)، وأحمد: «مسند الإمام أحمد» (٤٤/ ٥٠٢)، والنسائي: كتاب عشرة النساء، باب خدمة المرأة، حديث رقم: (٩١٢٥).

(٧) انظر: «الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري»، محمد بن يوسف الكرماني، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦هـ، (١٩/ ١٦٢)، و«مختار الصحاح»، محمد بن أبي بكر الرازي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ، (ص: ٨٩، و٣١٢)

(الغَرْب): الدَّلْو العظيمة التي يستخرج بها الماء من البئر بواسطة الناضِح (البعير).

(نِسْوةُ صِدق): بالصفة والإضافة، والصدق بمعنى الصلاح والجودة، أي نسوة صالحات.

(إِخْ إِخْ): بكسر الهمزة، وهو صوتٌ يستعمل لإناخة البعير وإجلاسه.

المطلب الثاني: ترجمة الزبير بن العوام ﷺ (٨).

اسمه ونسبه: هو الصحابي الجليل الزُّبَيرُ بن العَوّام بن خُوَيْلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قصيّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، وأُمّه عمة رسول الله ﷺ صَفيّةُ بنت عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ كنيته أبو عبد الله، ويتصل نسبه بنسب رسول الله ﷺ في جدها قصي.

وللزبير ﷺ من الولد أحد عشر ذكرًا وتسع نسوة؛ وكان الزّبير بن العوّام رجلًا طويلا تخط رجلاه الأرض إذا ركب، إلى الخفّة ما هو في اللحم، خفيف العارضين، أسمرَ اللّون أشعَر ﷺ.

فضائله: سبق الزّبيرُ ﷺ الناس في إسلامه، فهو من أوائل من أسلم واتبع النبي ﷺ، وكان له شرف السبق والاستجابة، وكان رابع أو خامس من أسلم؛ وروي أنه أسلم وهو ابن ستّ عشرة سنة، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين جميعًا، «ولما أسلم كان عمه يلفه في حصير ويدخن عليه بالنار، ويقول له: ارجع إلى الكفر، فيقول الزبير: لا أكفر أبداً»(٩).

(٨) انظر: «الطبقات الكبرى»، محمد بن سعد الزهري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الأولى ١٤٢١هـ، (٣/ ٩٣)، و«التاريخ الكبير»، محمد بن إسماعيل البخاري، الناشر المتميز، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٤٠هـ، (٣/ ٤٠٩)، و«مشاهير علماء الأمصار»، محمد بن حبان البستي، أبو حاتم، دار الوفاء- المنصورة، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ، (ص٢٥).

(٩) «المعجم الكبير»، سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية (١/١٢٢)، و«المستدرك على الصحيحين»، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ، (٣/ ٤٠٦)، «المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية»، محمد بن عمر السفيري، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ، (٢/ ١٧٦).

وهو ﷺ أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأحد المهاجرين الأولين إلى الحبشة والمدينة، وهو أول من سل سيفاً في سبيل الله عز وجل، فعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ قَالَ: «كَانَ الزُّبَيْرُ أَوَّلَ مَنْ سَلَّ سَيْفًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَسْفَلَ مَكَّةَ، وَالزُّبَيْرُ بِمَكَّةَ، فَأُخْبِرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قُتِلَ، فَخَرَجَ بِسَيْفِهِ قَدْ سَلَّهُ، يَشُقُّ النَّاسَ بِهِ حَتَّى أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَوَجَدَهُ لَمْ يُهَجْ، قَالَ: فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَأَخْبَرَهُ، قَالَ: فَدَعَا لَهُ وَلِسَيْفِهِ»(١٠).

وعُرف الزبير ﷺ بشجاعته وقوته وشدة بأسه، وقد كانت أمّه صفية بنت عبد المطلب -رضي الله عنها- تُعدّه وتربيه على ذلك، فقد روي أن صفيّة كانت تضرب الزّبير ضربًا شديدًا وهو يتيم، فقيل لها: قتلتِه، خلعتِ فؤاده، أهلكتِ هذا الغلام، قالت:

وإنّما أَضْرِبُهُ لِكَيْ يَلَبْ(١١) ... ويهزمَ الجيشَ ويأتي بالسَّلَبْ(١٢)

وقاتلَ الزّبيرُ بمكّة، وهو غلام، رجلًا فكَسَرَ يَدَهُ وضربه ضربًا شديدًا، فمُرّ بالرجل على أمه صفيّة وهو يُحْمَلُ فقالَت: ما شأنه؟ قالوا: قاتلَ الزّبير، فقالت:

كَيفَ رَأَيْتَ زَبْرَا ... أَأَقِطًا أَوْ تمرا ... أمْ مُشْمَعِلًّا(١٣) صَقْرَا؟

ثم إنه لما هاجر إلى المدينة لم يتخلّف عن غزوة غزاها رسول الله، ﷺ، فشهد الزّبير بن العوّام ﷺ بدرًا وأُحُدًا والمشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، وثَبَتَ معه يوم أُحُد، وبايعه على الموت في الحديبية تحت الشجرة، وكانت مع الزّبير إحدى رايات المهاجرين الثلاث في غزوة الفتح.

---

(١٠) «المصنف» عبد الرزاق الصنعاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ، (٥/ ٥٢٤).

(١١) يلب: يصبح لبيباً، واللبيب: الذكي العاقل.

(١٢) أورد هذه الأبيات والتي بعدها ابن سعد في «الطبقات الكبرى»، (٣/ ٩٤)،

(١٣) والمشمَعلّ: السريع، يكون في الناس والإبل.

عن هشام بن عروة عن أبيه قال: «كانت على الزّبير رَيْطَةٌ(١٤) صفراء مُعْتَجِرًا(١٥) بها يوم بدر، فقال النّبي ﷺ: (**إنّ الملائكة نزلت على سيماء(١٦) الزّبير**)(١٧)، ولم يكن مع النّبيّ ﷺ، يوم بدر غيرُ فرَسَين أحَدُهما عليه الزّبير.

وهو حواري النبي ﷺ، وأخصّ خاصّته، فعن جابر بن عبد الله ¢ قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «**من يأتينا بخبر القوم؟**» فقال الزبير: أنا، ثم قال: «**من يأتينا بخبر القوم؟**»، فقال الزبير: أنا، ثم قال: «**من يأتينا بخبر القوم؟**» فقال الزبير: أنا، ثم قال: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ**»(١٨).

وفي اليرموك كان له قصة مع الشجاعة مشهودة، فعن هِشامُ بْنُ عُرْوَةَ، عن أَبِيهِ: أَنَّ أَصْحابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قالُوا لِلزُّبَيْرِ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ: أَلَا تَشُدُّ فَنَشُدَّ مَعَكَ؟ فَقالَ: إِنِّي إِنْ شَدَدْتُ كَذَبْتُمْ. فقالُوا: لَا نَفْعَلُ، فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ حَتَّى شَقَّ صُفُوفَهُمْ، فَجاوَزَهُمْ وَما مَعَهُ أَحَدٌ، ثُمَّ رَجَعَ مُقْبِلًا، فَأَخَذُوا بِلِجامِهِ، فَضَرَبُوهُ ضَرْبَتَيْنِ على عاتِقِهِ، بَيْنَهُما ضَرْبَةٌ ضُرِبَها يَوْمَ بَدْرٍ. قالَ عُرْوَةُ: كُنْتُ أُدْخِلُ أَصابِعِي فِي تِلْكَ الضَّرَباتِ أَلْعَبُ وَأَنا صَغِيرٌ. قالَ عُرْوَةُ: وَكانَ مَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ يَوْمَئِذٍ، وهو ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ، فَحَمَلَهُ على فَرَسٍ، وَكَّلَ بِهِ رَجُلًا(١٩).

---

(١٤) الريطة جمعها رَيْطٌ ورياط، وهي كل ثوب رقيق لين.

(١٥) معتجرًا بها: الاعتجار بالعمامة هو أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئًا تحت ذقنة.

(١٦) سيماء: من السُّومَةُ والسِّيمةُ: وهي الْعَلَامَةُ والشارَة، ومنها قوله تعالى: (سيماهم في وجوههم).

(١٧) أخرجه البزار في مسنده: «البحر الزخار»، أحمد بن عمرو العتيكي البزار، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٨م، (٣٢٨/٦)، والطبراني في الكبير: «المعجم الكبير»، (١/ ١٢٠)، وقال البزار: فيه الصلت وهو لَيِّنُ الْحَدِيثِ بَصْرِيٌّ، وَإِنَّمَا أَدْخَلْنَاهُ فِي الْمُسْنَدِ وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ لِأَنَّهُ كَانَ فُعِلَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(١٨) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل الطليعة، رقم الحديث: (٣٩٧٥).

(١٩) البخاري: كتاب المغازي، بابُ قَتْلِ أَبِي جَهْلٍ، رقم الحديث: (٣٩٧٥).

وفاته[٢٠]: قتل يَوْم الْجمل، وَكَانَ يَوْم الْجمل يَوْم الْجُمُعَة لعشر خلون من جُمَادَى الْآخِرَة سنة ٣٦، قَتله عَمْرو بن جرموز بوادي السبَاع، وَهُوَ ابْن (٦٤) سنة، وقيل: (٧٥) سنة ﷺ.

المطلب الثالث: ترجمة أسماء بنت أبي بكر ~[٢١].

اسمها ونسبها: هي الصحابية الجليلة، والفدائية العظيمة، صاحبة المواقف الكبيرة، والخصال الحميدة، أسماء بنت أبي بكر الصدّيق بن أبي قُحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، وأمّها قُتيلة بنت عبد العزّى بن أسعد بن جابر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لُؤَيّ.

فضلها: أسلمت قديمًا بمكّة وبايعت رسول الله ﷺ، وهي ذات النطاقين، أخذت نطاقها فشقّته باثنين فجعلت واحدًا لِسُفْرَة رسول الله ﷺ، والآخر عصامًا لقربته[٢٢] ليلة خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر ﷺ إلى الغار، فسمّيت ذات النِّطَاقَين، تزوّجها الزّبير بن العوّام فولدت له عبد الله وعروة والمنذر وعاصمًا والمهاجر وخديجة الكبرى وأم الحسن وعائشة.

كانت -رضي الله عنها- امرأة سخيّة النفس، وكانت تقول لبناتها ولأهلها: أنفقوا أو أنفقن وتصدّقن ولا تنتظرن الفضل، فإنّكنّ إن انتظرتنّ الفضل لم تُفضلن شيئًا، وإن تصدّقتنّ لم تجدن فقده، وكانت تمرض المرضة فتعتق

(٢٠) انظر: «التاريخ الكبير» للبخاري (٣/ ٤٠٩)، و«الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد»، أحمد بن محمد الكلاباذي، دار المعرفة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧، (١/ ٢٧٠).

(٢١) انظر: «الطبقات الكبرى» محمد بن سعد الزهري، (١٠/٢٤٠)، و «تاريخ أبي زرعة»، لأبي زرعة عبد الرحمن بن عمرو الدمشقي، مجمع اللغة العربية – دمشق، ١٤٣١، (ص٤٩٦)، و«معرفة الصحابة»، لمحمد بن إسحاق ابن منده، مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ (ص٩٨٢)، الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد»، أحمد بن محمد الكلاباذي، (٢/ ٨٤٨).

(٢٢) العِصام: هو مِساكُ كُلِّ شيء ورباطُه، ومنه عِصَامُ المحمِل، وهو شِكَالُه وقَيْدُهُ، ومنه عِصَامُ القِرْبَة، أي ما تُربط بها. والْقِرْبَة: ظرف من جلد يخرز من جَانب وَاحِد وتستعمل لحفظ الماء أَو اللَّبن وَنَحْوهمَا، انظر: «غريب الحديث»، للخطابي، (١/ ٤٦٢)، و«المعجم الوسيط» (٢/ ٧٢٣).

كل مملوك لها. وكانت امرأة جلدةً صبورةً، وكانت تحت الزبير بن العوّام، وكان شديدًا عليها فأتت أباها فشكت ذلك إليه فقال: يا بنيّة اصبري فإن المرأة إذا كان لها زوج صالح ثمّ مات عنها فلم تزوّج بعده جمع بينهما في الجنّة.

وكانت ذات عبادة وصلاة، فعن الرَّكِيْن بن الرَّبيع قال: دخلت على أسماء بنت أبي بكر وهي عجوز كبيرة عمياء فوجدتها تصلّى وعندها إنسان يلقّنها: قومي، اقعدي، افعلي(٢٣).

وقد عُمّرت ومُتّعت، فعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَتْ أَسْمَاءُ قَدْ بَلَغَتْ مِائَةَ سَنَةٍ لَمْ يَقَعْ لَهَا سِنٌّ، وَلَمْ نُنْكِرْ من عقلها شيئاً.

وفاتها: توفيت -رضي الله عنها- بِمَكَّة بعد مَا قتل الْحجَّاج بن يُوسُف ابْنهَا عبد الله بن الزبير بِنَحْوِ جُمُعَة، مَاتَت فِي يَوْم الثُّلَاثَاء لثلاث عشرَة بقيت من جُمَادَى الْآخِرَة سنة ثَلَاث وَسبعين، رضي الله عنها وأرضاها.

(٢٣) «تاريخ أبي زرعة»، لأبي زرعة، (ص٤٩٦).

المبحث الأول

الدلالات الأسرية المستنبطة من القصة

المطلب الأول: القناعة والرضا بقسمة الله.

في هذه القصة الكريمة لهذا البيت الرفيع المقام، العالي النسب، ولهذه المرأة الكريمة ابنة الصديق، أحد أغنياء الصحابة ﷺ، عُرف غِناه في مكة والمدينة، فهو من كان يشتري الموالي المسلمين ويُعتقهم، وهو من عُرف بالبذل والنفقة، وإهلاك ماله بالحق؛ في هذه الصفات كلها تتزوج ابنتُه رجلاً فقيراً ليس له إلا فرسٌ وناضحٌ يزيدان الكُلفة والعناء، وحتى الأرض لم تكن له، وإنما كانت إقطاعا يملك منفعته لا أصله[٢٤]؛ ثم مع هذا كُله ليس له خادم يقوم بأعماله، ويسوس فرسه، وينقل الماء والنوى؛ ويكون الجهد كله على تلك المرأة الكريمة، ابنة الرجل الثاني في المدينة، وصاحب الثراء؛ وهنا نجد أثر التربية الصالحة، والإيمان الصادق، والرضا بقسمة الله وتدبيره، والقناعة بما أوتيت؛ فلم تتأفف، ولم تتضجر، ولم تخالع؛ وإنما رضيت وسلّمت، بل وقامت بما يقوم به أشداء الرجال، ولذا قالت: «تَزَوَّجَنِي الزُّبَيْرُ وَمَا لَهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَالٍ وَلَا مَمْلُوكٍ وَلَا شَيْءٍ، غَيْرَ فَرَسِهِ»، قال أبو العباس القرطبي [٢٥]: «فيه ما يدلّ: على ما كانوا عليه من تبذُّل المرأة في خدمة زوجها وبيته وفرسه، وإن كانت شريفة؛ لكن هذا كله فعلته متبرعة بذلك مختارة له، راغبة لما علمت فيه من الأجر، والثواب، وعونًا لزوجها على البرّ والتقوى؛ ولا خلاف في حسن ذلك»[٢٦].

---

(٢٤) ومسألة الإقطاع ذكرها ابن حجر ¬، انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري »، أحمد بن حجر العسقلاني، المكتبة السلفية، مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٨٠هـ، (٩/ ٣٢٣).

(٢٥) هو المحدّث أبو العبّاس القرطبي أحمد بن عمر بن إبراهيم المالكي، نزيل الإسكندرية، كان من كبار الأئمة سمع بالمغرب من جماعة، واختصر «الصحيحين». توفي ¬ سنة ٦٥٦هـ. انظر: شذرات الذهب (٧/ ٤٧٣).

(٢٦) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»، لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ، (٥/ ٥١٧).

وقال ابن الملقّن: «في حديث أسماء من الفقه أن المرأة الشريفة إذا تطوعت من خدمة زوجها بما لا يلزمها، كنقل النوى وسياسة الفرس، أنه لا ينكر ذلك عليها أب ولا سلطان»(٢٧).

ومن دلائل رضاها وقناعتها بقسمة الله أنها كانت تنقل النوى على رأسها من مسافة بعيدة، لتُعلف به ناضحها، وهو البعير، والنوى إنما هو مما تساقط من الناس وألقوه، فهو من رديء المتاع وسقطه، كما قال النووي (٢٨): «معناه أنها تلتقطه من النوى الساقط فيها مما أكله الناس وألقوه»(٢٩).

ثم إنه يظهر أن حاجتهم هذه في أول أمرهم بعد مهاجرهم إلى المدينة، لأن الزبير بعد ذا اغتنى، فأصبح لديه ألف مملوك يؤدون إليه الخراج كل ليلة، ثم لا يبيت حتى ينفقه ويقسمه(٣٠).

المطلب الثاني: تعاون أفراد الأسرة، وتبادل الأدوار.

لابد أن يعي المجتمع أن الأسرة منظومة متكاملة، وكيانٌ مترابط يقوم على أركان، وله حاجات، وعليه واجبات، وليس مجرد علاقة بين أفراد، يجمعهم بنيانٌ واحد، ولكلّ فردٍ فيه الحق أن يتخذ سبيله وأسلوب حياته الذي يحلو له؛ بل من خلال التأمل في المنظومة الآتية يتجلى للناظر عظمة هذا الكيان العظيم:

فأما أركانه فركنان أساسيان: هما الزوج والزوجة.

---

(٢٧) «التوضيح لشرح الجامع الصحيح»، عمر بن علي ابن الملقن، دار النوادر، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ، (١١٢/٢٥).

(٢٨) هو المحدث محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الشافعي، فقيه محدث، تلقت الأمة علمه بالقبول، من تصانيفه: تهذيب الأسماء واللغات، والمنهاج في شرح مسلم، والأذكار، ورياض الصالحين، والمجموع شرح المهذب والأربعون النووية وغيرها، توفي ٦٧٦هـ. انظر: طبقات الشافعية الكبرى "للسبكي" (٣٩٥/٨-٤٠٠).

(٢٩) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ، (١٤/ ١٦٥).

(٣٠) أخرجه أبو نعيم، والبيهقي، وابن عبد البر، انظر: «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، مطبعة السعادة – مصر، ١٣٩٤هـ، (١/ ٩٠)، و«السنن الكبرى»، أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ، (٨/ ١٥)، «جامع بيان العلم وفضله»، يوسف بن عبد البر، دار ابن الجوزي – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ، (١/ ٧١٨).

وأما حاجاته: فاحتياجات نفسية كالحب والعطف والعفو والأمان والتضحية والاهتمام ونحو ذلك.

وحاجات روحية دينية: وهي السعادة والقوة النفسية المكتسبة من القرب من الله، ومعرفته وتوحيده والإيمان به، ومراقبته، والعمل على مرضاته.

وحاجات مادية: وهي سبل العيش ورغده، والرفاهية وهناؤها، والمركب والملبس والمسكن، ونحو ذلك.

وأما الواجبات، فهي ضمان تحقيق الحاجات: وهي إما واجبات متعلقة بحق الله تعالى من توحيده ﷻ، والإيمان به، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والقيام بما أوجب الله تعالى، وإقامة الأسرة على هذا المبدأ، كما قال سبحانه عن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم:٥٥].

وإما واجبات متعلقة بحق الأمة والمجتمع، من صلة الأرحام، وإطعام الطعام، وإعانة المحتاج، ونصرة المظلوم، وإكرام الجار وإقراءِ الضيف، ونحو ذلك.

وعليه واجبات دينية متعدية، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح ذات البين، ونصرة دين الله، والدعوة إليه، والذب عن حريم الإسلام، ونحو ذلك.

وواجبات أسرية مادية: كتأمين الحاجات من مسكن وملبس ومركب ومأكل ومشرب ودواء وتعليم، ورسوم خدمات، ونحو ذلك، وغير مادية كتربية الأولاد، وتعليمهم، وأعمال البيت من طهي وتنظيف وترتيب، وإصلاح، وتمريض، وحضانة، ونحو ذلك.

والناظر في هذه المنظومة المتكاملة من الحاجات والواجبات، وتنوع مجالاتها، وتعدد مشاربها؛ يجد أنه أمام مسؤولية عظيمة، ومهام جليلة، وبُنيان عالِ الطوابق، كثير الفروع؛ وعليه فلا يمكن أن تستقيم حياة الأسرة، وتتم سعادتها، وتحقق نجاحاتها بتلبية الاحتياجات، وأداء الواجبات بالتواكل، وتدافع المسؤولية، وإلقاء التبعة على الآخر، وتنازع الحقوق بين ركني الأسرة: (الزوج والزوجة)؛ بل لا بد من تبادل الأدوار، وقيام كل طرف بما يستطيعه، وتحمل ما لا يستطيعه صاحبه، وأن يكون الدافع في ذلك المودة والرحمة، وحب الخير، وابتغاء الأجر، واليقين أن هذا التكامل إنما هو سبيل الاستقرار، وطريق السعادة، وتحقيق رضا الله تعالى.

إن تعاون أطراف الأسرة يسهم بالمحافظة على توازن الحياة الأسرية وتلبية احتياجاتها؛ وتمثّل تجربة أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنها- مع زوجها الزبير بن العوام ﷺ نموذجًا واضحًا لتبادل الأدوار، إذ تطوعت أسماء لأداء الأعمال الشاقة دعمًا لزوجها وحفاظًا على استقرار حياتهما؛ حيث لم يكن زوجها عاطلاً، متكئاً على أريكته، كَلّاً عليها؛ بل كان مشغولاً بما هو أشد من سياسة الفرس، ونقل النوى، وبما لا تقدر عليه أسماء ~، من كسب المعيشة، وتطلّب النفقة، ومن انشغاله بالنبي ﷺ، وبالجهاد والدعوة فقد ذكر أهل العلم أن «وجه صبرها على ذلك، وسكوت زوجها وأبيها على ذلك؛ فلكونهما مشغولين بالجهاد وغيره، وكانا لا يتفرغان للقيام بأمور البيت، ولضيق ما بأيديهما عن استخدام من يقوم بذلك»[٣١]؛ وهنا أظهرت أسماء ~ أن المرأة قد تُبادر لأداء الأعمال الشاقة من باب الإحسان والود للأسرة، ومن باب التكامل وتبادل الأدوار، إذ لم يكن عملها في نقل النوى وخدمة زوجها نتيجة لالتزام وواجب شرعي، بل نابع من رغبة شخصية، ومعرفةٍ بأن بنيان الأسرة لا يقوم بتنازع الحقوق، والعمل وَفْقَ: (الواجب، وغير الواجب)، كما أشار القاضي عياض -[٣٢] وغيره إلى هذا بقوله: «فيه معونة المرأة زوجها في الخدمة، فأما ما هو خارج بيتها مثل خدمة الفرس ونقل النوى فلا يلزمها بإجماع، إلا أن تتطوع بذلك معونة له، وحسناً لصحبته»[٣٣].

وقال القرطبي: «وإنما فعلت هي ذلك لحاجتها إلى ذلك، وتخفيفًا عن زوجها؛ على عادة أهل الدين والفضل الذين لا التفات عندهم لشيء من زينة الدنيا، ولا من أحوال أهلها»[٣٤].

---

(٣١) «عمدة القاري شرح صحيح البخاري»، محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (٢٠/ ٢٠٨).

(٣٢) هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي؛ كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم وصنف التصانيف المفيدة، واشتهر اسمه، وسار علمه، وعرف بالتواضع وخشية الله؛ مات سنة: ٥٤٤هـ. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان، (٣/٤٨٣)، وتاريخ الإسلام، للذهبي، (١١/٨٦٠).

(٣٣) «إكمال المعلم بفوائد مسلم»، القاضي عياض بن موسى السبتي، دار الوفاء، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ، (٧/٧٥)، وانظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»، لأبي العباس القرطبي، (٥/ ٥١٧).

(٣٤) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»، لأبي العباس القرطبي، (٥/ ٥٢٠).

«وهكذا رسى الإسلام التعاون والتعاطف بين الزوجين، شركة لا تهتم بالحقوق والواجبات، ولا محاسبة بين طرفيها عن هذا لك، وهذا لي، شركة يبذل كل من طرفيها ما يقدر عليه، لإقامة حياة مستقرة، شركة ينتج منها ومن دم طرفيها أولاد، يصبحون أغلى نتائجها، ويرثون جهادها وكفاحها؛ لا تقل: هل عَمَلُ الزوجة في بيت زوجها واجب عليها؟ أو كرم أخلاق منها؟ إن هذا السؤال من أحد طرفيها يفسدها، وإن التدخل الخارجي بالقوانين والمحاسبات هو الشرارة التي تحرقها، وإن حرص كل منهما على أن يأخذ من الآخر يزعزعها، بل يدمرها، وقانون هذه الشركة في السماء قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١]»[٣٥].

المطلب الثالث: حفظ المرأة لزوجها في غيبته.

النفس البشرية عبارة عن مجموعة غرائز وأخلاق وقيم ونوازع أودعها الباري ﷻ فيها منذ خلقها، وهي تزيد وتنقص، وتتحسن وتفسد بحسب عامل طبيعة النفس، وبيئتها، وتدينها، ونحو ذلك. وهذه الغرائز هي ما تعين على الحفاظ على الممتلكات والقيم، كما تعين على التعامل الأمثل مع الآخرين، والدفاع عن الحقوق؛ ومن أعظم الغرائز النبيلة، والقيم العظيمة: قيمة الغيرة، والغيرة هي: «كراهية مشاركة الغير»[٣٦]، وقيل: «ثوران الغضب حماية على أكرم الحُرَم، وأكثر ما تراعى في النساء»[٣٧].

وجعل الله سبحانه هذه القوة في الإنسان سببًا لصيانة الماء، وحفظًا للإنسان، ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب؛ ولذا قيل: كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت العفّة في نسائها[٣٨].

(٣٥) «فتح المنعم شرح صحيح مسلم»، (٨/ ٥٢٣)، موسى شاهين لاشين، دار الشروق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

(٣٦) «الرسالة القشيرية»، عبد الكريم بن هوازن القشيري، دار المعارف، القاهرة، (٢/ ٤١٠).

(٣٧) «الذريعة الى مكارم الشريعة»، الحسين بن محمد الشهير بـ: الراغب الأصفهاني، دار السلام، القاهرة. د.ط.ت. (ص٢٤٤).

(٣٨) انظر: «الذريعة الى مكارم الشريعة»، للراغب الأصفهاني، (ص٢٤٤)، و«إحياء علوم الدين»، أبي حامد محمد بن أحمد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، د.ط.، (٣/ ١٦٨).

«والغيرة خلق فاضل متركب من النَّجدة والعدل، لأن من عدَل كرِه أن يتعدى إلى حُرمة غيره، وأن يتعدى غيرُه إلى حرمته، ومن كانت النَّجدة طبعا له؛ حدثت فيه عزة، ومن العزة تحدث الأنفة من الاهتضام»(٣٩).

ومن هنا كان على المرأة أن تحفظ زوجها في غيبته، وترعى حقّه في غيرته، فلا تخرج من غير إذنه، ولا تُدخل في بيته من يكره، ولا تخالط الرجال، ولا تتعامل معهم بغير رغبته؛ وفي هذا تتعزّز أواصر العلاقة الأسرية، وتُسهم في استقرار الحياة الزوجية؛ كما فعلت أسماء ~ حين تمنّعت من الركوب مع النبي ﷺ؛ ومن هو في عفته وديانته وعصمته، وصرحت بذلك بقولها لزوجها الزبير ﷺ: (وذكرتُ غيرتك).

ولمحةٌ أخرى عميقة في هذا الحدَث، أنها حفظت مشاعر زوجها في غيبته أن تكون سبباً في حديث الناس عنه وعن بيته، إذ اعتذرت؛ لإنه ﷺ مع ركْب من أصحابه، فإن سار وسارت معهم؛ ربما ظهر منهم أو منها ما يحرجها، وإن تخلّف عنهم من أجلها ربما قذف الشيطان شيئاً في قلوبهم؛ وكل هذا خطر في نفسها في لحظات، فاعتذرت لذلك(٤٠).

المطلب الرابع: شفقة الرجل على أهله.

إن من شِيم الرجل، وكمال قِوامته، وحسن ولايته، وصدق محبته ووفائه؛ شفقتَه على أهله، وكراهة أن ينالهم ما يشق عليهم، أو يُنغّص عيشهم، أو يُضرّ بدينهم أو دنياهم؛ ويظهر هذا جليّاً من خلال موقف الزبير بن العوام ﷺ، إذ عبّر عن شفقته واهتمامه بها بنقلها النوى، ورعايتها لفرسه وناضحه، وهذا النوع من الغيرة والشفقة يمكن أن يكون برهاناً على المودة والرحمة بين الزوجين، التي هي أحد آيات الله في خلقه، فقد امتنّ الله على عباده بها بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم:٢١].

(٣٩) «الأخلاق والسير في مداواة النفوس»، علي بن أحمد ابن حزم، دار الآفاق الجديدة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٩هـ، (ص٥٥).

(٤٠) انظر: «فتح المنعم شرح صحيح مسلم»، موسى شاهين لاشين، دار الشروق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ، (٨/ ٥٢٣).

وفي موقف الزبير هذا، وهو من هو في غيرته وتفضيله ركوبها مع النبي ﷺ وأصحابه، -إذ تُؤمن الفتنة، ولكن لا يُؤمن أن يبدو منها شيئاً، أو ينكشف منها ما لا تريد كشفه، على أن تحمل النوى من تلك المسافة على رأسها، لما فيه من التبذّل والإهانة، وهي من هي في حسبها ونسبها وفضلها(٤١).

ونلحظ من موقف الزبير رضي الله عنه -أيضاً- أن هذه الشفقة لا تتعارض مع معاني الرجولة والقوامة والولاية، بل تعزز من قيمتها، وتبينُ عن معنى التكامل والتوازن الفطري في المشاعر والقيم.

قال أبو العباس القرطبي: «وأخرج هذا القول من الزبير فرطُ الاستحياء المجبول عليه أهل الفضل، ويعني بذلك: أن الحياء الذي لحقه من تبذلها بحمل النوى على رأسها أشدُّ عليه من الغيرة التي كانت تلحقه عليها لو ركبت مع النبي ﷺ، فإنَّه ﷺ ليس ممن يغار على الحريم لأجله»(٤٢).

وهذه المواساة اللفظية من الزبير رضي الله عنه لأسماء -رضي الله عنها- لا شك وأنه يعمل عمله في قلبها، ويخفف عنها عناءها، علاوةً على أنه يُعالج إشكالاً في التصوّر والفهم لمعنى القوامة والرجولة عند البعض، والذي يظهر من خلال خشونة التعامل، وجفاف المشاعر، بل وتجنب أسلوب المواساة ولو بالكلام، بل وربما تجاوز ذلك إلى الإيحاء أو التصريح بأن هذا واجبها، وأنها ملزمة به، أو نحو ذلك من الأساليب المخالفة لهدي النبي ﷺ، وسلف الأمة.

المطلب الخامس: كفايةُ المرأة زوجها عند انشغاله بالدعوة.

الدور المنوط بالرجل ليس دوراً مادّياً مقتصراً على الحاجات الشخصية والأسرية فحسب، بل هو دورٌ أكبر من ذلك بكثير، حيث إنه مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بأصل الوجود، وسُنة الاستخلاف، حيث خلق الله الخلق لعبادته، وسخّر لهم ما في السموات والأرض ليُقيموا عليها شريعته، ويُنفِذوا فيها سنته، وليكون الدين كُلُّه له ﷻ؛ وهذا العمل واجبٌ في حق العباد، والوجوب ابتداءً يقع على الرجال الذين هم أقدرُ على الضرب في الأرض، والقتال في سبيل الله، ونشر دينه، وإعلاء كلمته؛ وهذا الواجب لا يتمُّ إلا بمُساندة المرأة، وكفايتها الرجلَ مهمة بيته، ليتفرّغ

(٤١) انظر: «الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري»، للكرماني، (١٩/ ١٦٢)، و«فتح الباري» لابن حجر (٩/ ٣٢٣)، والبحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج»، لمحمد بن علي الإثيوبي، ، دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ. (٣٥/ ٦٧١).

(٤٢) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»، لأبي العباس القرطبي، (٥/ ٥٢٠).

لتحقيق ما أوجبه الله عليه؛ وحيث إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب(٤٣)؛ فلا يتسنى للرجل القيام بواجب الدعوة إلا بكفاية المرأة؛ فعليه يكون عمل المرأة في شؤون بيتها، وكفايتها زوجها واجباً.

وأسماء ~ تُدرك هذا الأمر جلياً، ولهذا خلفَت زوجها الزبير ¢ في بيته، بل تحمّلت من الأعمال مالا وجوب عليها فيه ابتداءً، كسقي الناضح، وسياسة الفرس، وحمل النوى؛ ولكنها كانت تُدرك أن تخليها عن هذا الثغر سيأتي بالنقص على زوجها في أداء واجبه من الجهاد في سبيل الله، وخدمة رسول الله ﷺ، والدعوة إلى الله، وقد عُرف عن الزبير ¢ نصرته للحق، وقوّته فيه، وانشغاله بالجهاد ومصالح النبي ﷺ ودعوته؛ فعن أسماء بنت أبي بكر ~ قالت: «مر الزبير بن العوام بمجلس من أصحاب النبي ﷺ وحسان بن ثابت -رضي الله عنه- ينشدهم فمدح حسان بن ثابت الزبيرَ فقال في مديحه:

فكم كربة ذب الزبير بسيفه ... عن المصطفى والله يعطي ويجزل

فما مثله فيهم ولا كان قبله ... وليس يكون الدهر ما دام يذبل

ثناؤك خير من فعال معاشر ... وفعلك يا بن الهاشمية أفضل»(٤٤).

كما يشير ابن حجر (٤٥) إلى ذلك بقوله: «ولكن كان السبب الحامل على الصبر على ذلك شغل زوجها وأبيها بالجهاد وغيره مما يأمرهم به النبي ﷺ ويقيمهم فيه، وكانوا لا يتفرغون للقيام بأمور البيت بأن يتعاطوا ذلك بأنفسهم، ولضيق ما بأيديهم على استخدام من يقوم بذلك عنهم، فانحصر الأمر في نسائهم فكُنَّ يكفينهم مؤنة

(٤٣) هذه قاعدةٌ أصولية، وتعني أنه إذا أمر الله تعالى عبده بفعل من الأفعال وأوجبه علية، وكان المأمور لا يتوصل إلى فعله إلا بفعل غيره؛ وجب عليه كل فعل لا يتوصل إلى فعل الواجب إلا به. انظر: «العدة في أصول الفقه»، لأبي يعلى الفراء، (٢/ ٤١٩).

(٤٤) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»، لأبي نعيم، (١/ ٩٠)

(٤٥) هو الإمام الحافظ المؤرّخ أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، صاحب «فتح الباري بشرح صحيح البخاري»، و «الإصابة في تمييز الصحابة»، و «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة»، وغير ذلك من المصنفات النافعة المفيدة القيّمة؛ توفي سنة: ٨٥٢هـ. انظر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (٢/ ٣٦).

المنزل ومن فيه ليتوفروا هم على ما هم فيه من نصر الإسلام، مع ما ينضم إلى ذلك من العادة المانعة من تسمية ذلك عارا محضا» (٤٦).

وأُثر عن الزبير ﷺ شجاعتُه وقوّتُه، وله مقامٌ عظيم في الإسلام، فهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وهو فارس رسول الله ﷺ وحواريه، وله القِدْحُ المُعلّى في معارك المسلمين بعد؛ وكان عمر -رضي الله عنه- يعدِل به ألفاً من الرجال، ولما أرسله لنجدة عمرو بن العاص ﷺ في فتح مصر قال: «أرسلت إليك أربعة آلاف جندي، ومعهم أربعة كل منهم بألف»، وذكر منهم: الزبير بن العوام ﷺ (٤٧).

ومما لا شك فيه أن مقام الزبير ¢ هذا يتطلّبُ وجود امرأة مثل أسماء تدعمه في غيابه، وتحفظ له بيته وبنيه، مما أعطى الزبير الفرصة للتركيز على واجباته الدعوية دون القلق على بيته.

وما قامت به أسماء يُظهر كيف أن المرأة عندما تنهض بدورها بنجاح، تُسهم في تعزيز فاعلية الرجل في مجالات الدعوة والجهاد.

(٤٦) «فتح الباري» لابن حجر، (٩/ ٣٢٤).

(٤٧) انظر: «فضائل مصر وأخبارها وخواصها»، لابن زولاق الحسن بن إبراهيم الليثي، مكتبة الخانجي – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ، (١/ ٢٥)، و«المقفى الكبير»، لتقي الدين المقريزي، (٣/ ٤٠٧).

المبحث الثاني

الدلالات الاجتماعية المستنبطة من القصة

المطلب الأول: حياء المرأة، وحفظ حقها في ذلك.

الحياء خُلق يحمل صاحبه على التحلي بكل فضيلة، والنأي بالنفس عن كل رذيلة، وهو جِماع الأخلاق، وأصل الآداب، هو خيرٌ كُلّه، ولا يأتي إلا بخير، ومن عُدِم الحياء؛ فليصنع ما يشاء، لأنه لم يُبْقِ على نفسه إنسانيتها، ولا على ذاته مروءتها؛ وبذلك صحّت الأخبار عن النبي ﷺ، فقد جاء عن النبي ﷺ فيما رواه عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ ¢ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**»(٤٨).

قال الراغب الأصفهاني(٤٩): «والحياء: انقباض النفس عن القبائح، وهو من خصائص الإنسان»(٥٠).

وإذا كان الحياء له المنزلة العليّة بين الأخلاق، وهو زينة الإنسان، وميزان مكانته بين الخلق، فهو عند النساء أشد، والحاجة إليه فيهن أكبر، فهو أخصّ أوصاف المرأة، وأهم مكونات شخصيتها، ومكمن زينتها، ومحطُّ أنظار الرجال إليها؛ فإنه يشين المرأة تبذّلها، وطولُ لسانها، وقوة سطوتها، وجرأتها على الرجال، ومزاحمتها إياهم، ومنافستها لهم في ميادينهم؛ ولا يغني عنها حينئذٍ حسبُها، ولا مالها، ولا جمالها؛ «قيل لابنة أرسطاطاليس(٥١): ما أحسن ما في

(٤٨) أخرجه البخاري، كتاب الآداب، باب الحياء، رقم: (٦١٢١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، رقم: (٣٧).

(٤٩) هو الإمام أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل، الراغب الأصفهاني، له "التفسير الكبير" في عشرة أسفار، غاية في التحقيق. وله "مفردات القرآن" لا نظير له في معناها، توفي ﷺ سنة: (٥٠٢هـ). انظر: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي (٣/ ١١٥٦).

(٥٠) «الذريعة إلى مكارم الشريعة»، للراغب الأصفهاني، (ص٢٠٧).

(٥١) وهو أرسطاطاليس بن نيقوماخس، وهو من تلاميذ فلاطون، وكان بليغ اليونانيين ومترسلهم وأجل علمائهم، بعد فلاطون، وكتَب في: المنطقيات، والطبيعيات، والإلهيات، والخلقيات، وتوفي في آخر أيام الإسكندر. انظر: «الفهرست»، لابن النديم، (٢/ ١٥٧).

المرأة؟ قالت: الحُمرة التي تعلو وجهها من الحياء»[٥٢]، وذكر أهل الحكمة أن الله تعالى خلق الحياء عشرة أجزاء، فجعل تسعة أجزاء في النساء، وجزءاً في الرجال[٥٣].

وفي قصّة أسماء ~ نجد أنها صرّحت بحيائها من ركوبها مع النبي ﷺ؛ فقالت: «**فَعَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنِّي قَدِ اسْتَحْيَيْتُ، فَمَضَى**»، ونجد -أيضاً- أن النبي ﷺ راعى لها ذلك، وعرف ذلك منها، فمضى تاركاً لها، لأن حفظ حقها في حيائها أولى من خدمتها.

وأسماء -رضي الله عنها- عفيفة حيِيَّة أبعد ما تكون عن التبرج والسفور والخلطة والظهور، فقد روى هشام بن عروة، أنّ المنذر بن الزّبير قدم من العراق فأرسل إلى أسماء بنت أبي بكر بكسوة من ثياب مرويّة وقُوهِيَّة[٥٤] رقاق عتاق بعدما كفّ بَصَرُها، قال: فلمستها بيدها ثمّ قالت: أفّ! ردّوا عليه كسوته، قال: فشقّ ذلك عليه وقال: يا أمّه إنّه لا يشفّ، قالت: إنّها إن لم تشفّ فإنّها تصف، قال: فاشترى لها ثيابًا مرويّة وقوهيّة[٥٥] فقبلتها وقالت: مثل هذا فاكسُني [٥٦].

وعليه؛ فالمحافظة على الحياء أحد أهم حقوق المرأة التي يجب احترامها وحمايتها، إذ لا يُمكنها الشعور بالراحة والأمان إلا في بيئةٍ تُقدّر لها هذا الحق؛ كما أنه يجب السعيُ لتعزيز هذا الخلق في المجتمع كافة، وفي النساء خاصة،

(٥٢) «اللطائف والظرائف»، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، دار المناهل، بيروت (ص١٤٢).

(٥٣) انظر: «مفيد العلوم ومبيد الهموم»، أبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي، المكتبة العنصرية، بيروت، ١٤١٨هـ، (ص٣٩٦)؛ وقد رفعه بعضهم إلى النبي ﷺ، ولكن حكم عليه أهل العلم بالضعف الشديد، انظر: «زهر الفردوس»، لابن حجر، (٢/ ٤٥٨)، و«ضعيف الجامع الصغير وزيادته»، للألباني، (ص٤١٣).

(٥٤) الثياب المرويّة: ضربٌ من الثياب الجيدة المنسوبة إلى مدينة مرو بفارس. والقوهيّة: ثياب بيضاء رقيقة، منسوبة إلى قوهستان، وهو بلد بكرمان. انظر: «المعجم العربي لأسماء الملابس» (ص: ٤١٠، و٤٦٦).

(٥٥) لعل المقصود أنه اشترى لها مروية قوهية غير رقاق، لأنه في الموضع الأول وصفها بأنها رقاق.

(٥٦) «الطبقات الكبرى»، لمحمد بن سعد، (١٠/ ٢٤٠).

فهو الضمانة -بإذن الله- للحفاظ على عفّة المرأة وطُهرها، وهو السبيل لاستقامة المجتمع كافة، وتحصينه من مهاوي الردى، ومزالق الفتن.

المطلب الثاني: التعاون والتكافل الاجتماعي.

من أقوى دعائم المجتمع المسلم، وأمتن أسسه، وبه تسوده المودة والاحترام، والعطف والرحمة؛ التعاونُ على البر والتقوى، وهو الذي أمر الله به في كتابه بقوله ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[المائدة:٢]، وهو التعاون على كل خير، في جلب المصالح العامة، ودفع المفاسد العامة، بعيداً عن الأنانية والتفرّد، وذلك بأن يحب الفرد لغيره ما يحبه لنفسه، وغير ذلك من نماذج ومجالات التعاون بين أفراد المجتمع؛ وهو ما يثمر صفاء النفوس، وتقارب القلوب، وأمن المجتمع نفسياً وروحياً، وبه ترتفع الشحناء والمكر والخديعة والظلم والجور والكيد والشر.

وفي قصة أسماء ~ ما يشير إلى ذلك من تعاون مثمر بنّاء، وإعانة للآخرين، وقضاء لحاجته، وهو ما تشير إليه أسماء ~ مادحةً، مُفاخرةً، ذاكرةً للجميل، بقولها: «**وَلَمْ أَكُنْ أُحْسِنُ أَخْبِزُ، وَكَانَ يَخْبِزُ جَارَاتٌ لِي مِنَ الأَنْصَارِ، وَكُنَّ نِسْوَةَ صِدْقٍ**»، فهي ~ تُشير إلى ما كان عليه عمل الناس من التعاون، والتكاتف، ونبذ الأنانية وحب الذات، والذي كان مؤثّراً في النفوس، بانياً للمجتمع؛ ولأجل ذا لم تنسَه أسماء الوفيّة، ولا زالت تذكر كرمهن، وحسن صنيعهن.

قال العيني[٥٧]: «أَرَادَت كن نسَاء صالحات فِي حسن الْعشْرَة وَالْوَفَاء بالعهد ورعاية حق الْجوَار»[٥٨].

(٥٧) هو بدر الدين أبو الثناء محمود بن أحمد بن موسى العينتابي الحنفي المعروف بالعيني، من تصانيفه: شرح البخاري وشرح الهداية وشرح الكنز وشرح مجمع البحرين وشرح تحفة الملوك في الفقه وشرح الكلم الطيب لابن تيمية وشرح قطعة من سنن أبي داود وقطعة كبيرة من سيرة ابن هشام، توفي سنة ٨٥٥ هـ. انظر: شذرات الذهب (٢٨٦/٧-٢٨٨).

(٥٨) «عمدة القاري شرح صحيح البخاري»، للعيني، (٢٠/ ٢٠٨)، وانظر: «فتح الباري» لابن حجر (٩/ ٣٢٣).

كيف لا يكون ذلك والنبي ﷺ كان يحثّ أصحابه على هذا الأمر دوماً، ويجعله أحد الأعمال التي تعتق العبد من واجب أداءِ شكر المنعم ﷻ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ سُلَامَى**(٥٩) **مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ على دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَخْطُوها إلى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الأَذَى عن الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**»(٦٠).

والحديث جامعٌ لأصول المعروف بين الناس، وسبل التعاون بينهم، فقد اقتضى العدل، والإعانة على حمل المتاع، والأخذ بالرِكاب(٦١)، والكلمة الطيبة، وإماطة الأذى؛ والأخص بالشاهد الإعانة على حمل المتاع ورفعه.

المطلب الثالث: العطف على ذوي الحاجات.

وإن من الركائز الاجتماعية، والأسس المجتمعية، والقيم النبيلة والمتصلة بمبدأ التعاون؛ العطفَ على ذوي الحاجات، وسد حاجتهم، وتفريج كرباتهم، وإعانتهم على زمانهم.

ويتجلى هذا العنصر في القصة من خلال أمور:

الأول: عطف النبي ﷺ على الزبير بن العوام ¢، وذلك بأن أقطعه أرضاً يستفيد منها، ومن خراجها، قال القزويني معقّباً على خبر إقطاعه الزبير أرضاً: «وفي الحديث ترغيب في إعانة الضعفاء والإحسان إليهم»(٦٢)، وفيه

(٥٩) السُّلامى: عظام الأصابع، وقيل كل عظم في البدن، انظر: «الكواكب الدراري»، للكرماني، (١٢/ ١٥٨).

(٦٠) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه، رقم: (٣٠٠٥).

(٦١) الرِّكاب: الإبل التي يسار عليها، انظر: «الكواكب الدراري»، للكرماني، (١٢/ ١٥٨).

(٦٢) «شرح مسند الشافعي»، عبد الكريم بن محمد القزويني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ، (٤/ ٣٢٤).

-أيضاً- ما يدل على الحث على إقطاع الأرض، ومنح الرَّزق، والعطية لمن يراه من أهل الفضل والحاجة، والمنفعة العامة، كالعلماء والمجاهدين والدعاة والساعي في حوائج الناس، وغيرهم(٦٣).

والثاني: عطف النبي ﷺ على أسماء حين رآها تحمل النوى على رأسها، وعرضه الخدمة لها، يقول القاضي عياض: «فيه ما كان عليه الصلاة والسلام جُبِل عليه من الأخلاق الكريمة، والضرائب المبرة لجميع الناس، والإشفاق والرأفة لبني أصحابه ونسائهم وجميع أمته، وإكرامهم وتقريبهم وخلطهم بنفسه»(٦٤).

والثالث: عطف أبي بكر الصديق على ابنته أسماء -رضي الله عنهما-، بمنحها خادماً يكفيها الأعمال الشاقة، من حمل النوى، وسياسة الفرس، والقيام بالناضح.

وهذه العطيّة جاء في بعض الروايات أنها من النبي ﷺ، وفي بعضها أنها من أبيها أبي بكر ﷺ، والجمع بين ذلك فيما قاله أهل العلم -رحمهم الله-: «والتوفيق بَينهمَا بِأَن السَّبي لما جَاءَ إِلَى النَّبِي ﷺ أعْطى أَبَا بكر مِنْهُ خَادِمًا ليرسله إِلَى ابنته أَسمَاء؛ فصدق أَن النَّبِي ﷺ هُوَ الْمُعْطِي، وَلَكِن وصل إِلَيْهَا بِوَاسِطَة»(٦٥).

وأيّاً ما كان، فإنه يُبيْنُ عمّا كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من الرفق بأصحاب الحاجات، وإعانتهم، وسدّ حاجاتهم؛ بل ويُظهِرُ العطفُ الذي أبداه أبو بكر ﷺ تجاه ابنته أسماء -رضي الله عنها-، إذ كان مُتيقّظاً لإزالة ذلك عنها، وفاهماً لما كانت تعانيه من مشقة فهمًا عميقًا، مُترقّباً لرفع المشقة عنها، من غير أن يُحرج الزبير، أو يجرحه، أو يُثقل عليه، أو يُحمّله ما لا يطيقه، أو يقطعُه عن شُغله مع النبي ﷺ، والدعوة إلى الله تعالى(٦٦).

(٦٣) انظر: «الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج»، لمحمد الأمين الهرري، دار المنهاج - دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ، (٢٢/ ١٥٧).

(٦٤) «إكمال المعلم بفوائد مسلم»، للقاضي عياض، (٧/ ٧٧).

(٦٥) «عمدة القاري شرح صحيح البخاري»، للعيني، (٢٠/ ٢٠٨)، وانظر: «فتح الباري» لابن حجر (٩/ ٣٢٤).

(٦٦) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»، للقرطبي، (٥/ ٥٢٠)

ويجد المتأمل من خلال هذا المبحث عناية الشريعة الإسلامية برعاية حق المرأة، والحفاظ عليه، واحترام حقها في صيانة نفسها، وتشجيعها على البُعد عن خلطة الرجال، ومواطن الشُبه؛ كما يتجلى -أيضا- تعزيز الشريعة على مبدأ التعاون والتكافل الاجتماعي، وتتبع المجتمع وأحوال أهله، والعطف على ذوي الحاجات.

المبحث الثالث

الدلالات التربوية المستنبطة من القصة

المطلب الأول: دور المرأة في التربية وبناء الجيل.

إذا تفوقت المرأة في أحد الميادين المنوطة بها شرْعاً وقدَراً وفطرةً؛ فإن هذا النجاح سينسحب على الميادين والمجالات الأخرى لها بالنجاح والتقدم، بل والإبداع، ومن ثَمّ ستتراكم لديها النجاحات، أما إن تكلّفت غير ميادينها الفطرية، فلربما نجحت فيما اختطّته لنفسها من عمل، ولكنها -قطعاً- ستخسر الميادين الأخرى الأشد أولوية، ولن تستطيع التوفيق بينها؛ ذلك أن وظيفتها الفطرية الشرعية إنما هي منظومة أعمال متكاملة منتظمة، آخذٌ بعضُها بعنق بعض، يقود نجاحُها الأول تفوقاً في الثاني؛ وهكذا تتابع حلقات النجاحات لتصنع بيتاً مكتمل الأركان، متكافئ الحقوق والأعمال، بعيداً عن الفرقة والاختلاف، تحُفُّه المودةُ والرحمةُ، فتكون المرأة بذلك للبيت سكناً، وللزوج لباساً، وللأولاد أمّاً، وللجيل مصنعاً؛ فإن ابتغت مزيد عملٍ بعد هذه الفروض الفطرية والشرعية؛ وجدت ما يتناسب مع أساسياتها، ولا يتعارض مع واجباتها، ولا يحجب الأصل على حساب الفرع، ومن هنا ستُسجّل نجاحاتها الفرضية، وتُضيف إليه النجاحات الفرعية.

أمّا إن عبثت المرأةُ بالأوراق، وخلطت الأولويات؛ فإن الفشل سيحوطها، والشتات الأسري والاجتماعي والنفسي سيلحق بها وبأسرتها -وإن أظهرت نجاحاً في عملها الفرعي-؛ فماذا سيكون حال الزوج المكلّف بالعمل لأجل النفقة والسكنى والعلاج والحاجيات الأساسية والكمالية؟ ولمن تكون رعاية وحضانة وتربية الأولاد الذين هم عماد الأسرة -مستقبلاً-، وحاملو لوائها وأعبائها، والذين هم أمل الأمة والمجتمع، وصنّاع مستقبلها؟ بل وماذا سيغني عنها مالٌ جمعته حين يتقدّم بها العمر، وتحتاج إلى الأولاد البررة، والسكن الآمن، والبيت الهادئ، والزوج الحاني الكريم؟

كان بإمكانها أن تكِل المال والنفقة لزوجها فهو على جمعها أقدر، وعلى صرفها أحكم؛ ويصفو لها الجو لترعى أولادها، وتأنس بزوجها، وتستمتع بأطفالها؛ بعيداً عن صخب الخارج، وذُلِّ الأغراب.

لابد وأن تقنع المرأة بأن مهمتها ووظيفتها (زوجةً، وأمّاً، وربّة بيت) هي شرفُها وسؤددها، وهي استقرارها وأنسها، وهي المتوافقة مع طبيعتها وتكوينها؛ قناعتُها بذلك تُضفي على البيت أمناً وسكينة، ويتحقق «ما أحاطها به الشرع المطهر من العمل على حفظ كرامة المرأة وعفتها وصيانتها، وتقدير أدائها لعملها في وظائفها المنزلية؛ وبه يُعلم أن عمل المرأة خارج البيت مشارِكة للرجل في اختصاصه؛ يقضي على هذه المقاصد أو يخل بها، وفيه منازعة للرجل في وظيفته، وتعطيل لقيامه على المرأة، وهضم لحقوقه؛ إذ لا بد للرجل من العيش في عالمين:

١. عالم الطلب والاكتساب للرزق المباح، والجهاد والكفاح في طلب المعاش وبناء الحياة، وهذا خارج البيت.

٢. وعالم السكينة والراحة والاطمئنان، وهذا داخل البيت؛ وبقدر خروج المرأة عن بيتها يحصل الخلل في عالم الرجل الداخلي، ويفقد من الراحة والسكون ما يخل بعمله الخارجي، بل يثير من المشاكل بينهما ما ينتج عنه تفكك البيوت، ولهذا جاء في المثل: (الرجل يَجْنِي والمرأة تَبْني)» (٦٧)

فالمرأة بهذا عنصرٌ محوريٌ في بناء المجتمع والأمة، ووظيفتها ليست بأقل من وظيفة الرجل، فلا الرجل تستقيم حياته بفقدها، أو تخلّيها عن ثغرها، ولا هي قادرةٌ على إتمام مهامها إذا تعطّل الرجل.

وتربية الأجيال، وبناء المجتمع ليس بالأمر الهامشي الساذج، بل هو قِوام الحياة، وضمانة المستقبل؛ والمرأة بذلك تتحمل مسؤولية كبرى في بناء الاعتقاد الصحيح، والإيمان الراسخ، وصياغة القيم المثلى، والأخلاق الحسنة، والمهارات اللازمة لدى الجيل القادم من أبناء وبنات.

وتُمثل أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنها- نموذجًا يُحتذى به في هذا السياق، فقد كانت المرأة الواعية بحقيقة مهامها وواجباتها، والصالحة والمطيعة لزوجها، والماهرة في أداءِ تحقيق أهدافها وأهداف أسرتها؛ مما جعلها تُسهم بفاعلية في التربية الحسنة لأبنائها، وتُنضج جيلاً كان له مواقف مشرفة، وجهودا فاعلة في تاريخ الأمة بعد؛ فأخرجت أسماءُ من أبنائها جيلًا ضارباً عمقُه في التاريخ الإسلامي، الذين أصبحوا قادة في مجالات العلم والسياسة

(٦٧) «حراسة الفضيلة»، د. بكر أبو زيد، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الحادية عشر، ١٤٢٦هـ، (ص٦٢).

والقوة؛ «فكانت أسماء أشجع نساء الإسلام، وأثبتهن جأشاً، وأعظمهن تربيةً للولد على الشهامة، وعزة النفس»(٦٨).

وكانت حريصة كل الحرص على تنشئة أولادها تنشئة إيمانية صالحة، فمن حين الولادة حتى أن يشب الابن ويكبر ويتبوّأ المكانة العليا في الأمة وهي لا تفتأ حدِبةً على تطلب الكمالات لهم، ساعية في جلب ما يصلحهم؛ وما يدل على ذلك ما رواه هشام بن عروة، عن أبيه عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما «أَنَّهَا حَمَلَتْ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ، قالَتْ: فَخَرَجْتُ وَأَنَا مُتِمٌّ، فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَنَزَلْتُ قُبَاءً، فَوَلَدْتُ بِقُبَاءٍ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَوَضَعْتُهُ فِي حَجْرِهِ، ثُمَّ دَعَا بِتَمْرَةٍ فَمَضَغَهَا، ثُمَّ تَفَلَ فِي فِيهِ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ دَخَلَ جَوْفَهُ رِيقُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ حَنَّكَهُ بِالتَّمْرَةِ، ثُمَّ دَعَا لَهُ فَبَرَّكَ عَلَيْهِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ وُلِدَ فِي الإِسْلَامِ» (٦٩)، وهنا يظهر جليّا اهتمام أسماء -رضي الله عنها- بولدها من حين ولادته، فقد حرصت أن تستهلّ حياته برسول الله ﷺ لينال بركته، وتصيبه دعوته، وهذا ما حدث بالفعل، فإنه ثبت ثبات الأبطال عند الكعبة حين حصره الحجاج بن يوسف، فقاتل وما وهن وما ضعُف، وما زالت تلك الأم العظيمة، والمربية الجليلة تحوطه بدعائها، وتثبته بتوجيهاتها، فكان آخر ما قالت له: «يا بُنيَّ، إياكَ أن تعطيَ خَصلةً من دينِكَ مخافةَ القتلِ»(٧٠).

إن وجود أمٍّ مثل أسماء، التي تحملت الأعباء، وقامت بواجباتها زوجةً وأمّاً، يعكس مكانة المرأة في الأسرة والأُمة، إذ ساهمت في بناء أسرة قوية قائمة على التعاون والمودة، وجيلٍ فاعلٍ كان له اسما ورسما بارزاً في الأمة.

(٦٨) «أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين»، محمد رشيد رضا، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: ١٤٢٤هـ، (ص١٨).

(٦٩) أخرجه البخاري، كتاب العقيقة، باب: بابُ تَسْمِيَةِ الْمَوْلُودِ غَدَاةَ يُولَدُ، لِمَنْ لَمْ يَعُقَّ، وَتَحْنِيكِهِ، رقم: (٥٤٦٩)، ومسلم: كتاب الآداب، باب: استحباب تحنيك المولود عند ولادته وَحَمْلِهِ إِلَى صَالِحٍ يُحَنِّكُهُ، وَجَوَازِ تَسْمِيَتِهِ يَوْمَ ولادته، وَاسْتِحْبَابِ التَّسْمِيَةِ بِعَبْدِ اللَّهِ وَإِبْرَاهِيمَ وَسَائِرِ أَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ ف، رقم: (٢١٤٦).

(٧٠) «المعجم الكبير»، للطبراني، (١٤/ ١٨٨).

علاوة على ذلك، فإن دور المرأة في التربية لا يقتصر فقط على الجوانب الروحية والمعنوية، بل يشمل أيضًا الجوانب التعليمية والسلوكية، فقد كانت أسماءُ -رضي الله عنها- قدوةً لأبنائها في لزوم الشريعة، والتسليم لأحكامها، والتحلي بأخلاق الإسلام، والقيام بالحقوق الواجبة، وكان له أثره البالغ في تكوين شخصياتهم القيادية، وهممهم السامية، وعزائمهم المتوقّدة لنيل المعالي، وتطلّب المجد في عليائه.

وهنا يبرز دور المرأة في التربية وبناء الجيل من خلال أسلوب حياتها، الذي يجسد القيم الإسلامية النبيلة، ويُعزز من مكانتها في المجتمع عنصراً فاعلاً مؤثراً.

المطلب الثاني: حمل المرأة المسلمة لهمّ الدعوة.

من خلال قصة أسماء بنت أبي بكر والزبير -رضي الله عنهما- وموقفها العظيم مع زوجها؛ يتجلى بوضوح الهم الدعوي الكبير الذي كانت تحمله أسماء -رضي الله عنها- في كل مواقفها وتصرفاتها؛ إذ الدعوة كانت أصلًا أصيلًا في شخصيتها، وهمًّا تحمله في حياتها كلها، ووفق ذلك كانت توجه كل شيء في حياتها قبل زواجها من الزبير وبعد زواجها منه إزاء ما يخدم الدعوة، فقد تشربت الدعوة مبكرًا من خلال قربها من البيت النبوي، فضلًا عن بيت والدها الصديق ﷺ الداعية الأول من الصحابة في الإسلام، ففي هذه البيئة الاجتماعية والدعوية تشربت أسماء الدعوة، وشاركت فيها مبكرًا، ولا سيما في أبرز موقف تاريخي لها في السيرة النبوية خلال أحداث الهجرة النبوية التي كان لها دورها البارز، بل لقبها (ذات النطاقين) الذي علق بها، واشتهرت به، إنما كان لمهمتها الشريفة في الهجرة، والذي تُفاخر به، فعَنْ أَسْمَاءَ -رضي الله عنها- قالَتْ: «صَنَعْتُ سُفْرَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ ﷺ، حِينَ أَرَادَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلى المدِينَةِ، قالَتْ: فَلَمْ نَجِدْ لِسُفْرَتِهِ، وَلا لِسِقَائِهِ ما نَرْبِطُهُما بِهِ، فَقُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ ﷺ: وَاللَّهِ ما أَجِدُ شَيْئًا أَرْبِطُ بِهِ إِلَّا نِطَاقِي. قالَ: فَشُقِّيهِ بِاثْنَيْنِ فَارْبِطِيهِ: بِوَاحِدٍ السِّقَاءَ وَبِالآخَرِ السُّفْرَةَ. فَفَعَلْتُ. فَلِذَلِكَ سُمِّيتُ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ»(٧١).

(٧١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، بابُ حَمْلِ الزَّادِ فِي الغَزْوِ، رقم: (٢٩٧٩).

ولقد كانت مواقف تَحَمُّلِها همّ الدعوة في هذه المرحلة الحرجة، والمهمّة العظيمة متعددة، ومن ذلك شعورها بالمسؤولية، وكتمها لخبر النبي ﷺ وخبر أبيها بعد خروجهم للهجرة.

وقد قدّمت أسماء -رضي الله عنها- أنموذجًا متميزًا للمرأة المسلمة في حملها لِهَمّ الدعوة منذُ صباها، فقد كانت تدرك عِظَم الدعوة، وتَمالُؤَ قريش على قتل النبي ﷺ، وأهمية الهجرة النبوية، وخطورة الموقف، ولذا لم تُربكها هيبة أبي جهل في أن تُخفي سرّ مخرج النبي ﷺ وأبيها، رغم معرفتها بخبرهما، إذ كانت تتعاهدهما بالطعام، وقد ذكرت قصتها مع أبي جهل، تقول: «لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَتَانَا نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فِيهِمْ أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ، فَوَقَفُوا عَلَى بَابِ أَبِي بَكْرٍ، فَخَرَجْتُ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: أَيْنَ أَبُوكِ يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي وَاللَّهِ أَيْنَ أَبِي، قَالَتْ: فَرَفَعَ أَبُو جَهْلٍ يَدَهُ، وَكَانَ فَاحِشًا خَبِيثًا، فَلَطَمَ خَدِّي لَطْمَةً خَرَّ مِنْهَا قُرْطِي، قَالَتْ: ثُمَّ انْصَرَفُوا»[٧٢]. وحتى لقيت ربّها، حيث ختمت حياتها صابرةً محتسبةً، صادعةً بالحق آمرةً بالمعروف، ناهيةً عن المنكر، معلّمةً للخير، وقدمت دروسًا بليغة في الصبر والثبات والعزيمة والفداء والتضحية وغير ذلك من القيم والمعاني السامية، وأضحت بذلك أنموذجاً دعوياً مميزاً للمرأة المسلمة.

ويظل الهَمُّ الدعوي الذي تحمله المرأة المسلمة من الأدوار المهمة الأساسية المكملة لجهود الرجال في الدعوة إلى الله، ولا يمكن الاستغناء عنها، ولا تنجح جهود الدعوة إلا بمشاركة المرأة بما تقدر عليه وفق المتاح لها والممكن والمقدور عليه، ولا سيما في إطار الدور الرئيس لها في بيتها ومع أفراد أسرتها، فهي في هذا المقام مكلفة بواجبها الدعوي الذي لا ينبغي لها التقصير فيه.

المطلب الثالث: نأي المرأة بنفسها عن خُلطة الرجال.

في الحديث قول أسماء -رضي الله عنها-: «**فَجِئْتُ يَوْمًا وَالنَّوَى عَلَى رَأْسِي، فَلَقِيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَدَعَانِي، ثُمَّ قَالَ: "إِخْ إِخْ" لِيَحْمِلَنِي خَلْفَهُ، قَالَتْ: فَاسْتَحْيَيْتُ وَعَرَفْتُ غَيْرَتَكَ**»،

(٧٢) «السيرة النبوية»، عبد الملك بن هشام المعافري، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥، (٤٨٧/١)، و«الغيلانيات، لأبي بكر محمد بن عبد الله الشافعي»، دار ابن الجوزي – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ، (٨٣١/٢).

وفي هذا المقطع جُملة من المعاني العميقة الجديرة بالاستفادة، والاقتداء بأسماء -رضي الله عنها-، إذ تمنّعت من الركوب مع النبي ﷺ، وقد توفّر لها من المبررات مجتمعةً ما لو كانت واحدة لربما كانت كافية في ركوبها؛ **فمنها:**

١. حاجتُها لذلك، وشدّة مؤونة حمل النوى لمسافة بعيدة، بالقدر الذي جعل زوجها حين علِم بذلك يُصرّح لها أن حملها النوى كان أشد عليه من ركوبها.
٢. رُخصة النبي ﷺ لها، فهو المشرّع، ولا يأمر إلا بحق.
٣. أن من تركب معه هو أزكى خلق الله، وأطهرهم، وأبرّهم، وأتقاهم؛ وهو صاحب أبيها، وزوج أختها، وابن خال زوجها، فجمع ما بين القرابة والصُحبة والطُهر والديانة ما لا يجتمع لغيره.
٤. أنها بحضرة رجالٍ آخرين، فانتفت بذلك الخلوة، وبعُدت التُهمة(٧٣)؛ كما أن الرُفقةُ هنا آمنةٌ، فالواحد منهم صاحب فضل وديانة وصلاح، فكيف بهم مجتمعين.

ومع هذا كلّه تمنّعت من الركوب، وآثرت تعبها وعناءها ومشقّتها على حيائها وعفّتها وصيانة حقّ زوجها، وحفظ ذمّته وعهده.

وهذا -بلا شك- معنىً رفيع للعفّة والحياء، فهي لم تكن تنظر لمجرد جوازه شرعا؛ بل إلى أنه أمرٌ لم تألفه نفسها العفيفة، ولا تقبلها تربيتها النزيهة، ويأباه حياؤها الفطري، ويمنعها ما تحمله من تقدير لعظيم حق زوجها، وصيانةً لغيبته.

(٧٣) وحاشاه أن يُتهم ﷺ، وقد زكّاه ربه وطهّره، ولكنه ﷺ في خروجه من معتكفه مع زوجه صفيّة إلى بيتها ليلاً، قالت صفية: (فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «**على رسلكما، إنها صفية بنت حيي**»، فقالا: سبحان الله يا رسول الله! قال: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءا**»، أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب هل يدرأ المعتكف عن نفسه؟، رقم: (٢٠٤٨)، ففيه أن المسلم يدرأ عن نفسه التُهمة، ويكفّ عنها الغيبة، والشيطان يحب الفتنة، ولربما أغرى من في قلبه مرض من أهل النفاق، أو من يتربصون بالنبي ﷺ وبالإسلام.

وتشير القصة إلى مسألة ركوب المرأة مع غير محرمها وإردافها، وقد اختلف فيها أهل العلم إلى قولين:

القول الأول: الجواز بشرط وجود الحاجة، وأمن الفتنة، وألّا يكون خلوةً؛ ذكر ذلك النووي رحمه الله، وغيره، فقال: «وفيه جواز إرداف المرأة التي ليست محرما إذا وُجِدت في طريق قد أعيت لا سيما مع جماعة رجال صالحين، ولا شك في جواز مثل هذا»(٧٤)؛ ومن المعلوم أن الرديف على البعير ليس كغيره من الدواب(٧٥)، لأنه لا تلتقي أجسامهما، وهذا -أيضاً- شرطٌ آخر، وهو التباعد بينهما، «ولعله أراد ارتدافها على البعير فقط، لأن الراكب والرديف في البعير لا يلتقي جسماهما، أما إذا كان الارتداف بالتقاء جسميهما فلا يجيزه أحد»(٧٦)

القول الثاني: عدم الجواز، وتوجيههم لعرض النبي ﷺ على أسماء -رضي الله عنها-:

١. أن هذا خاصٌّ بالنبي ﷺ، بدلالة نهيه عن الاختلاط في النصوص الأخرى(٧٧).

---

(٧٤) «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج»، للنووي، (١٤/ ١٦٦)، وقال به -أيضاً- ابن بطال، «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٧/ ٣٥٠)، وابن الملقن، «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» (٢٥/ ١١٢)، وابن حجر، «فتح الباري» (٩/ ٣٢٤)، **ومن المعاصرين**: محمد بن علي الشوكاني، «نيل الأوطار» (١١/ ٥٧)، والشيخ عبد العزيز بن باز، «الحلل الإبريزية من التعليقات البازية على صحيح البخاري» (٤/ ٨٧)، والشيخ عبد العزيز الراجحي، «توفيق الرب المنعم بشرح صحيح الإمام مسلم» (٦/ ٣٠٦)، والشيخ محمد بن علي الأتيوبي -رحمه الله- «البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج» (٣٥/ ٦٧١)، والشيخ محمد الأمين الهرري -رحه الله-، «الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج»، محمد الأمين بن عبد الله الهرري (٢٢/ ١٥٨).

(٧٥) والقياس على ما يكون فيه التقاء الأجساد بالمراكب الحديثة: الركوب في السيارات والحافلات في مرتبة واحدة لا يفصلهما شيء، أو الإرداف في الدراجات النارية.

(٧٦) «الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج»، محمد الأمين بن عبد الله الهرري (٢٢/ ١٥٨):

(٧٧) قاله القاضي عياض وغيره، انظر: «إكمال المعلم بفوائد مسلم»، للقاضي عياض، (٧/ ٧٧):

٢. أنها كانت ذات محرم عنده[٧٨].

٣. أن هذا قبل فرض الحجاب[٧٩].

٤. أنه لم يُرد إركابها خلفه، وإنما هي من فهمت ذلك بقرينة الحال[٨٠].

والذي يترجّح للباحث -والعلم عند الله- القول الأول، وهو القول بجواز ركوب المرأة الأجنبية بغير محرمٍ مع الرجل بالشروط التي ذكرها أهل العلم، وهي: الحاجة لذلك، وأمن الفتنة، وعدم الخلوة بها، وتباعدهما عن بعضهما؛ مالم تكن في هلَكة وانقطاعِ سبيل، فيجوز ذلك مع الخلوة، لأنه استنقاذٌ من هلكة ومشقة، ودفعُ أكبر الضررين بارتكاب أدناهما.

وأما دعوى الخصوصية للنبي ﷺ، فهو متوجّهٌ فيما لو كان بخلوةٍ ونحوها، أما في هذا الحديث فلا دليل على الخصوصية، مع إمكان القول بغيرها من غير تعارض للنصوص الأخرى، نصّ عليه بعض شُرّاح الحديث[٨١].

مع التنبّه إلى أن ركوب المرأة الأجنبية مع الرجل في السيارة تتحقق فيها الخلوة، ولو كانت بين السيارات في الطريق داخل المدينة، وذلك للفارق بين السيارات -التي هي أشبه بالغرف المغلقة- عن الإبل المكشوفة؛ وقد نصّ على ذلك أهل العلم المعاصرون، قال ابن عثيمين: «يقول بعض الناس: إن هذا ليس بخلوة، لأنها تمشي في السوق!! فيقال: بل هو خلوة، بل وأعظم، لأن السيارات الآن تغلق زجاجها، فلو تكلم معها الرجل بكل كلام لم يسمعه

(٧٨) قاله ابن التين، فيما نقله عنه ابن الملقن، انظر: «التوضيح لشرح الجامع الصحيح»، لابن الملقن (٢٥/ ١٠٩).

(٧٩) قال ابن الملقن، انظر: «التوضيح لشرح الجامع الصحيح»، لابن الملقن (٢٥/ ١٠٩)، وابن حجر، «فتح الباري» لابن حجر (٩/ ٣٢٣).

(٨٠) ذكر هذا الاحتمال ابن حجر، انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٩/ ٣٢٣).

(٨١) انظر: «البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج»، محمد بن علي الأتيوبي، (٣٥/ ٦٧١)، و«توفيق الرب المنعم بشرح صحيح الإمام مسلم»، عبد العزيز الراجحي، مركز عبد العزيز بن عبد الله الراجحي، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٩هـ، (٦/ ٣٠٦).

أحد، ولأنه في الواقع خال بها في غرفة، لأن السيارة بمنزلة الغرفة، ولأننا نسأل كثيراً عن مثل هذه المسائل ويحدث فيها حوادث كثيرة جداً وخطيرة»[٨٢].

ولا تنتفي الخلوة إلا بركوب غيرها معها، أو بجعل السيارة مكشوفة غير مظلّلة، بحيث يُرى ما في داخل السيارة، فتقاس بذلك على انتفاء الخلوة في ركوب الدواب.

(٨٢) «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين»، محمد ابن عثيمين، (١٩/ ١٣٠)، وقال به: العلامة: محمد ابن إبراهيم، «فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ» (١٠/ ٥٢)، وابن باز، «مسائل الإمام ابن باز» (ص١٨٧)، وعبد الله بن جبرين، «فتاوى الشيخ ابن جبرين» (٢٤/ ١٣).

خاتمة

أختم هذا البحث بأبرز النتائج والتوصيات.

أولًا: أبرز النتائج:

١. أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنها- مثالٌ لأثر التربية الصالحة في الإيمان الصادق، والرضا بقسمة الله وتدبيره، والقناعة بما أوتيت؛ بلا تأفف، ولا تضجر؛ وإنما ترضى وتسلّم، بل وتقوم بما يقوم به أشداء الرجال.

٢. الأسرة منظومة متكاملة، وكيانٌ اجتماعي مترابط بحقوق وواجبات مشتركة، وليس مجرد علاقة بين أفراد يجمعهم بنيانٌ واحد، ولكلّ فردٍ فيه الحق أن يتخذ سبيله وأسلوب حياته الذي يحلو له.

٣. الحياء زينة الإنسان، وميزان مكانته بين الخلق، فهو عند النساء أشد، والحاجة إليه فيهن أكبر، فهو أخصّ أوصاف المرأة، وأهم مكونات شخصيتها، ومكمن زينتها، ومحطُّ أنظار الرجال إليها.

٤. التعاون بمختلف أشكاله بين أفراد المجتمع؛ يثمر صفاء النفوس، وتقارب القلوب، وأمن المجتمع نفسياً وروحياً، وبه ترتفع الشحناء والمكر والخديعة والظلم والجور والكيد والشر.

٥. العطف على ذوي الحاجات، وسد حاجتهم، وتفريج كرباتهم، وإعانتهم على زمانهم؛ إحدى الركائز الاجتماعية، والأسس المجتمعية، والقيم النبيلة والمتصلة بمبدأ التعاون في المجتمع.

٦. المرأة عنصرٌ محوريٌ في بناء المجتمع والأمة، ووظيفتها ليست بأقل من وظيفة الرجل، فلا الرجل تستقيم حياته بفقدها، أو تخلّيها عن ثغرها، ولا هي قادرةٌ على إتمام مهامها إذا تعطّل الرجل.

٧. تربية الأجيال، وبناء المجتمع هو قِوام الحياة، وضمانة المستقبل؛ والمرأة بذلك تتحمل مسؤولية كبرى في بناء الاعتقاد الصحيح، والإيمان الراسخ، وصياغة القيم المثلى، والأخلاق الحسنة، والمهارات اللازمة لدى الجيل القادم من أبناء وبنات.

٨. عندما تملأ المرأة دورها بنجاح، فإنها تُسهم في تعزيز فاعلية الرجل في مجالات الدعوة والجهاد، وهي بذلك تعطي الرجل الفرصة للتركيز على واجباته الدعوية دون القلق على بيته.

ثانيًا: التوصيات:

١. يوصي الباحث الباحثين في تخصص الدراسات الإسلامية؛ بالاهتمام بأبحاث الاستنباطات الدعوية والاجتماعية والفقهية وغيرها وذلك بتتبع الأحداث والمواقف التاريخية في صدر الإسلام، لما تشتمل عليه من فوائد جمة.

٢. يوصي الباحث المؤسسات الأسرية والاجتماعية بالاهتمام بدراسة النماذج الأولى للأسرة المسلمة في عصر الصحابة والتابعين؛ لاستلهام الحياة الدعوية للأسرة المسلمة من خلال تلك النماذج، وإحياء القدوة في نفوسهم.

قائمة المصادر والمراجع

١. أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين، محمد رشيد رضا، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: ١٤٢٤هـ.
٢. إحياء علوم الدين، أبي حامد محمد بن أحمد الغزالي، دار المعرفة – بيروت، د.ط.
٣. الأخلاق والسير في مداواة النفوس، علي بن أحمد ابن حزم، دار الآفاق الجديدة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٩هـ.
٤. أسس مناهج البحث العلمي وتحقيق النصوص في العلوم الإسلامية والعربية، علي بن عتيق الحربي، الناشر المتميز للطباعة والنشر: الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٣٩هـ-٢٠١٨م.
٥. إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض بن موسى السبتي، دار الوفاء، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.
٦. البحر الزخار، أحمد بن عمرو العتيكي البزار، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٨م.
٧. البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، محمد بن علي الأثيوبي، دار ابن الجوزي – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.
٨. تاريخ أبي زرعة، أبي زرعة عبد الرحمن بن عمرو الدمشقي، مجمع اللغة العربية – دمشق، ١٤٣١هـ.
٩. التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري، الناشر المتميز، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٤٠هـ.
١٠. التوضيح لشرح الجامع الصحيح، عمر بن علي ابن الملقن، دار النوادر، دمشق – سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ.
١١. توفيق الرب المنعم بشرح صحيح الإمام مسلم، عبد العزيز بن عبد الله الراجحي، مركز عبد العزيز بن عبد الله الراجحي، الطبعة: الأولى، ١٤٣٩هـ.
١٢. الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل البخاري، دار التأصيل – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣هـ.
١٣. جامع بيان العلم وفضله، يوسف بن عبد البر، دار ابن الجوزي – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.
١٤. حراسة الفضيلة، د. بكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الحادية عشر، ١٤٢٦هـ.

١٥. الحلل الإبريزية من التعليقات البازية على صحيح البخاري، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار التدمرية، السعودية، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ.
١٦. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر، عام النشر: ١٣٩٤هـ.
١٧. دليل كتابة الرسائل العلمية والبحوث التكميلية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، أحمد عبدالله الضويحي؛ أحمد بن عبد الرحمن الرشيد، إصدارات جامعة الإمام، ١٤٣٢هـ.
١٨. الذريعة الى مكارم الشريعة، الحسين بن محمد الشهير بـ: الراغب الأصفهاني، دار السلام – القاهرة. د.ط.ت.
١٩. الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن القشيري، دار المعارف، القاهرة، د.ط.ت.
٢٠. زهر الفردوس، أحمد بن علي بن حجر، جمعية دار البر، دبي – الإمارات، الطبعة: الأولى، ١٤٣٩هـ.
٢١. السنن الكبرى، أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ..
٢٢. السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.
سنن سعيد بن منصور، سعيد بن منصور الجوزجاني، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.
٢٣. «السيرة النبوية»، عبد الملك بن هشام المعافري، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥.
٢٤. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد ابن العماد، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ.
٢٥. شرح مسند الشافعي، عبد الكريم بن محمد القزويني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ.
٢٦. ضعيف الجامع الصغير وزياداته، محمد ناصر الدين، المكتب الإسلامي، د.ط.ت.
٢٧. الطبقات الكبرى محمد بن سعد الزهري، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.
٢٨. العدة في أصول الفقه، أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.
٢٩. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣٠. الغيلانيات، أبي بكر محمد بن عبد الله الشافعي، دار ابن الجوزي – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.
٣١. فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم محمد بن إبراهيم آل الشيخ، مطبعة الحكومة بمكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٣٩٩هـ.
٣٢. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، المكتبة السلفية – مصر، الطبعة: السلفية الأولى، ١٣٨٠هـ.
٣٣. فتح المنعم شرح صحيح مسلم، موسى شاهين لاشين، دار الشروق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.
٣٤. فضائل مصر وأخبارها وخواصها، لابن زولاق الحسن بن إبراهيم الليثي، مكتبة الخانجي – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ.
٣٥. الفهرست، محمد بن إسحاق ابن النديم، دار المعرفة، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤١٧هـ.
٣٦. الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، محمد بن يوسف الكرماني، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦هـ.
٣٧. الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محمد الأمين بن عبد الله الهرري، دار المنهاج - دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ.
٣٨. اللطائف والظرائف، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، دار المناهل، بيروت.
٣٩. المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية، محمد بن عمر السفير، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ..
٤٠. مجموع فتاوى ورسائل العثيمين، محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.
٤١. المرشد في كتابة الأبحاث، حلمي محمد فوده؛ عبد الرحمن صالح عبد الله، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة-جدة، الطبعة: السادسة، ١٤١٠، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
٤٢. مسائل الإمام ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار التدمرية، السعودية، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ.

٤٣. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار إحياء التراث العربي- بيروت، د.ط.ت.

٤٤. المسند، أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة الرسالة، دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ.

٤٥. مشاهير علماء الأمصار، محمد بن حبان البستي، أبو حاتم، دار الوفاء- المنصورة، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

٤٦. المصنف، عبد الرزاق الصنعاني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ..

٤٧. معرفة الصحابة، محمد بن إسحاق ابن منده، مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

٤٨. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أحمد بن عمر القرطبي، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٤٩. مفيد العلوم ومبيد الهموم، أبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي، المكتبة العنصرية، بيروت، ١٤١٨هـ.

٥٠. المقفى الكبير، تقي الدين المقريزي، دار الغرب الاسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٢٧هـ.

٥١. منة المنعم في شرح صحيح مسلم، صفي الرحمن المباركفوري، دار السلام، الرياض، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٥٢. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، يحي بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ.

٥٣. نيل الأوطار، محمد بن علي الشوكاني، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ.

٥٤. الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد، أحمد بن محمد الكلاباذي، دار المعرفة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.